تشاؤم المتـــنبي
وما أعد لهذا التشاؤم

« كلمة أعدت لتلقى فى مهرجان دمشق فجاءت متأخرة »

للأستاذ خليل هنداوى

التشاؤم طبيعة العقل المتيقظ الذى فتح عينيه فرأى نفسه فى القافلة البشرية فأخذ يسأل نفسه : لِمَ يمشى ؟ ومن أين إلى أين ؟ ولكنه لبث يمشى ... وكيف لا يتشاءم العقل حين ينظر إلى الكون ويحاول أن يحكم على أشيائه بميزانه ، فيجد قاعداً ما كان يجب أن يكون قائماً ، وقائماً ما كان ينبغى له أن يكون قاعداً . هذه النظرة الأولى التى تبدأ فى العقل حين يتيقظ وعلى مقدار سعة دوائر العقل تتسع هذه الآماد وتتباعد هذه الدوائر . وهنا يعود العقل فى كل مراحله خاسئاً يحمل إلى النفس خيبته فى رحلته ، فتلقاه حاملاً الشقاء دون عزاء والحيرة دون إيمان ، والنفس إزاء هذا القلق العميق إما أن تعود إلى نفسها ويلتف بعضها على بعضها التفاف الأفعى ، تخلق من نفسها العزاء فى هذه الحياة ؛ وسواء عندها أن تخلقه من إيمان تفرضه أو تفاؤل تؤمن به ، فترى فى الحياة إشراقاً ولا إشراق وبهجة ولا بهجة ، فتتغنى مغتبطة بهذا التفاؤل الذى هو وليد ذلك التشاؤم المبطن به ، وإما أن تعود ولا تكسب من التشاؤم إلا التشاؤم

وقد يكون هذا التشاؤم عاماً يمثل رسالة الانسانية المتألمة ، وقد يكون خاصاً يمثل رسالة الشاعر نفسه ، يضع فيها آلامه ولا يتصل بالانسانية إلا بقدر ما تريد نفسه أن تتصل بها . وآفاق التشاؤم العام أوسع مدى ، وأصحابه أكثر نبلاً لأنهم أفنوا ذواتهم فى الذات الانسانية ، وأصبحت تتمثل فيهم كل آلامها وأوجاعها ، لأن الانسانية ذاتها تجهل ما تريد من الكون وما يراد منها . وآفاق التشاؤم الخاص ضيقة محدودة تدل على أنانية أصحابه ، إذ لو أن حظاً من حظوظ الحياة الضائعة أتاهم لبدل نظراتهم فى الكون ولون لهم شمساً جديدة بألوان غير ألوانهم

ولكن التشاؤم لا تتحد نتائجه ؛ فمن التشاؤم ما يذهب بصاحبه إلى الاستسلام حين يؤمن بعجزه ، وإلى الزهد حين يؤمن بفناء الحياة ، وهذا أقبح التشاؤم وان يكن أصدقه عند العقل . ومن التشاؤم ما يثير فى النفس قوى المقاومة فيها بالعنف والشدة ، وبهذا التشاؤم تعشق الحياة وتشرق ألوانها القاتمة ؛ فشوبنهاور ونيتشه رجلا تشاؤم حالك اللون ، ولكن تشاؤم شوبنهاور قاده إلى الاعتقاد بأن العدم وحده هو الذى ينقذ الانسانية من آلامها التى تتذوقها بين الموت والحياة . وتشاؤم نيتشه كان موقظاً لنفسه وحافزاً قوياً له لعبادة الحياة لأنها الحياة مهما كانت آلامها ومهما طغت آلامها

لست أعرف فى الأدب العربى أبلغ تشاؤماً من اثنين : المعرى وابن الرومى وثالثهما المتنبى .. أما الأولان فقد سلكا فى تشاؤمهما مسلكا عدمياً يدعو إلى احتقار الحياة ، والمعرى هو القائل بأن الولادة جناية ، وهو الذى غلبت عليه فكرة صوفية غير مؤمنة ؛ وابن الرومى هو الذى جعل من حياة الانسان مأساة يبدأ أولها بعويل الطفل حين يولد وتنتهى بمثله حين يموت . أما المتنبى فقد كان جهازه العصبى عنيفاً ، وكان تشاؤمه مضطرباً متوثباً لم يدفعه إلا الى مقاومة الحياة ؛ لا يصدفه عنها صادف لأنه مؤمن بها ومستهام بها ولو أنها عجوز درديس ! وقد كان تشاؤمه ، اجتماعياً — وهو ما اصطلح أدباؤنا على تسميته بالحكمة المتنبية — وتشاؤمه الاجتماعى كان وليد حظه فى هذا الوجود الذى جعل من حياته الملهمة والمعلومة مرحلة آلام وجهاد . تشاؤمه فى نظراته الاجتماعية ولا يرى منها إلا ما يتصل بنفسه ؛ ولقد يطغى هذا التشاؤم على بقية نظراته فى مسائل الحياة والكون لأنه كان مريضاً بحب معالى الأمور ، مريضاً بعظمة نفسه ، كأنما يرى — بعد أن حرمه المجتمع حقه — يرى واجبه أن يضع نفسه — وهو حر بها — موضعاً عالياً ، وذا أقل ما يفعل ؟ ولا أستطيع إلا أن أتصور تلك الحدة فى جهازه العصبى الذى كان عنيفاً فى احتداده متوتراً فى هدوئه . وهنا كان سر اختلاف التشاؤم بين المعرى والمتنبى . فالمعرى كان أوسع أفقاً فى دائرته ومغازيه ، وكان نظره أعم فى مسائل الكون والحياة لأنه وقف درسه وشعره عليها ، وكان له فى زهده وعماه ما يصرفه عن الاشتغال بدنياه . فمال به تشاؤمه الى الزهد والعدمية كما مال بشوبنهاور . مع أن المعرى أحد محبى المتنبى والمتأثرين به ، أخذ منه تشاؤمه وأغفل ما كان عنده من أسباب المقاومة . وإذا فكر الانسان قليلاً فى حاله بدا له أن الكآبة

تنتظره ، وأن كل فكرة هنا تقوده الى الحزن . وما حياة الانسان على الأرض إلا مأساة تنتهي دائماً بالدموع والشقاء والموت . يعلم المفكرون هـذا المغزى ولـكن بعضهم لا يقول به . بل إن منهم من يدعو الى الايمان القوى بالحياة . ولـكن هل كان الناس كلهم يملـكون هذه القوة الروحية ؟ وهما أمران مختلفان ؛ أن يتغلب المرء على تشاؤمه وهمومه فى سبيل اتمام دورة الحيـاة ، أو أن يجتنب الحياة تطغى عليه أنانية حاقدة . وهل كان هذا الايمان القوى بالحياة إلا نتيجة تشاؤم عميق ونفور عميق من الحياة وولع عنيف بها يولده هذا النفور ؟

فى فلسفة المعرى تشاؤم ليس بايجابى صرف ، ولـكنه تشاؤم سلبى . فيها انطلاق من الذاتية وتعلق بالذاتية : لا تطلق «أم دفر» لمجرد نتنها ولـكنها تدانت من « أم دفر » فلم تبؤ إلا بالخيبـة . فلسفة وجدت ذاتها ضائعة بين الذوات ؛ ومثل ذات المعرى لم تأت لتكون ضائعة ، فشنت الغارة على الدنيا وعلى أهلها وانتقمت لذاتها منها ومنهم ، وبهذا استغنت عن ذاتها فى ناحية وتمسكت بذاتها من ناحية ثانية . ولهذه الذات خطرها لأنها أنانية حاقدة نصبت نفسها فوق غيرها وطفقت تعطى أحكامها القاسـية على الناس وقيمهم وعقائدهم ، وتسخر منهم وتفشى معايبهم وتكشف عن مخازيهم ، وهى فى كل هذا فرحة مختالة ، ترى فى كل خطوة تخطوها ظفراً لها لا مما . ولهذه العلة وحدها كان يأنس بالمعرى كل متشائم لأنه يحسن له الانتقام من الحياة وأبناء الحياة ولـكنه ظفر موهوم لا يكلف صاحبه إلا النقمـة . أما من لا يزالون يتلمسون فى أنفسهم بقية من الحياة النشيطة فهم لا يرضون عن هذا التشاؤم . فالمتنبي متشائم يهاجم فساد الناس والمجتمع ولـكنه لا يهرب من الحياة ولا ييأس منها يأساً قاتماً ، فى يأسه انطلاق وفى نقمته رضا ، وحياته وأدبه شيئان متصلان لا يمكن أن ينفصلا لأنهما يعبران أصدق التعبير عما يريد أن يقوله عن الحياة ، ولأن حقائقه العامة كانت مستخلصة من حقائق الحياة الخاصة

— ٢ —

ادخل فى كل باب ولجه المتنبي : فى اجتماعياته وفى إحساسه بذاته وفى نظراته إلى الحياة والموت وما وراء الموت تجـد فى ثنايا هذه النظرات تشاؤماً عميقاً ينفذ اليه النظر الثاقب ، وتجد أن هذه المقاومة التى تمثل الرجولة الـكبيرة قد كلفت صاحبها كثيرا ، وجعلت حياته مسرحا للاضطراب والشقاء . أما المجتمع عنده ، فهو غاب تتصارع فيه سباع الأنس ، ينال واحدها الشيء غلاباً واغتصابا . وقد تنقلب هذه السباع غربانا ورخما ، فويل للجريح الذى يشكو اليها ، وويل للذى يأمن لهم ، ويثق بهم ، ويغره منهم الثغر المبتسم . ولا عجب إذا تناحرت السباع فالحياء لا يسد لها جوعا والسلام لا يحفظ لها بقاء . والشاعر — خلال ذلك — يريد أن يكون أسداً — ولـكن حيياً — « وهل ينفع الأسد الحياء من الطوى ؟ » يريد أن يكسب مالا يصمه ومالا يشركه فيه وغد . وإذا لم ينل ذلك فالذنب ذنب الزمان الهرم !

كيف يريد أن يقابل مثل هذا المجتمع ؟ أيشكو ويتعتب ، وهو فى كل قصيدة يشكو ويتعتب . أيسكن ويرضى ؟

وللواجد المكروب من زفراته سكون عزاء أو سكون لغوب

أيرضى عن الحياة وما صفت إلا لجاهل متعاقل وما شقى فيها إلا عاقل ؟ أيطمئن إلى سرورها وقد رأى انتقاله ؟ أيسى فى منا كبها ومسعاه منها فى شدوق الأراقم ؟ أيتعلل بشيء منها ولا أهل يتعلل بهم ولا وطن ولا نديم ولا كأس ولا سكن ؟

اتخذ الشاعر مواقف متعددة إزاء المجتمع ، فهو طوراً يسعى إلى مداراة أصحابه ، وقلما يفعل فيصادق العـدو ومن نكد الدنيا مصادقته ، وهو طوراً — وقد ملّ من المبالاة بالأرزاء — يسعى إلى أن تهون عليه الأرزاء ، وأن يخدر إحساسه بها ، لأنه ما انتفع بالمبالاة . وطوراً ينظر إلى الأيام نظرة عميقة فلا ينكر عليها تقلبها ، ولا يمدحها ولا يذمها ، لأنها تبطن لا عن جهل ، وتكشف لا عن حلم ، ولأنها لا تشبع إلا إذا جاع ، ولا ترى إلا إذا ظمئ ! وفى هذه النظرة يدنو من مذهب القائلين باللاشعور فى الطبيعة . وقد يضطرب هذا الرأى فى نفسه فيتصور أن الناس هم الجانون لا الأيام وحدها ، فيزيد نقمته على المجتمع ، ويصبح لا يميل الى مجازاة الابتسام بالابتسام ، ولا الشك فى كل إنسان ، لأنه واحد من الأنام ، وإنما يريد أن ينتقم من الناس وأن يطأ قلوبهم وآمالهم كما يطأون قلبه وآماله

ومن عرف الأيام معرفتى بها وبالناس روى رمحه غير راحم

وكيف يكون الذنب كله ذنب الزمان ؟ وربما تحسن الصنيع لياليه وإن كدرته أحيانا . ولـكن هو الانسان الذى يركب فى قناة الزمان سناناً . وقد يسأم الشاعر من هذه المقاومة العنيفة

فيعود الى عدم الاكتراث بدهره ، ويرى أن هذا المراد الذى تتفانى عليه نفوس البشر أحقر من أن تتعادى فيه وتتفانى . ولكنه ينظر الى نفسه فيرى أن هذا المراد الكبير ، المراد الذى جل أن يسمى — هو سبب شقائه . فلو مال عنه لوجد فى الحياة رغداً كثيرا وراحة كبيرة ، ولكن ما هى قيمة الحياة بدون مراد كبير ؟ والمتنبي ليس ممن يرضون بميسور عيشهم ! فيتعلل وهو أبلغ تعليل يراه بأن لا عذاب فى العذاب ، وأن كل بعيد الهم فيها معذب

وإذا كانت النفوس كبارا تعبت فى مرادها الأجسام
فليحمل العذاب فى سبيل ما جل أن يسمى !

هذه مراحل كان يأوى اليها الشاعر فى نضاله ، أقربها تجثم فوقه غيوم سوداء من التشاؤم ، ولقد زاد فى تشاؤمه إحساسه بعظمته التى لا يقنعها مظهر من المظاهر ، وهو الذى كان فى محفل من الناس واليوم أصبح فى محفل من قرود ! ولكن المتنبي إزاء هذه النوازع هل راح يبغض الحياة ؟ ظل احساس المتنبي برغم هذه العوارض التى ألمت به إحساساً قوياً فنياً ، يحب الحياة ولا ينكر ابتغاء كل نفس للحياة وحرصها عليها وهيامها بها . ومن الذى لم يعشق الدنيا والحياة ؟ ولكنه لا ينسى أنها لا تنيل أرباً ولا تعطى غاية ولا تسمح بوصال . وقد كان هذا وحده كافياً فى خلق النفور منها ولكن :

من لذيذ الحياة أنفس فى النفـ ـس وأشهى من أن يمل وأحلى
وإذا الشيخ قال أف فما ملّ حياة وإنما الضعف ملا

وإذا كان الشيخ وحده يمل الحياة بسبب ضعفه فليبادر وهو فتى — الى الحياة — يستخلص منها ملذاتها قبل أن تستخلص منه نفسه ، ويجنح الى اللهو فأوقات اللهو تمر سراعاً كأنها كما قال قبّل يزودها حبيب راحل ! والزمان لا لذيذ خالص فيه ولا سرور كامل . . . وليت شاعرنا يقنع بهذا التعليل ، فلقد تطغى عليه فى بعض مواطنه موجة من التشاؤم لا تجد لها مثيلاً إلا عند المعرى . . . ينظر الى الدنيا وقد أعياه أمرها فيراها خائنة :

. . . أخون من مومس وأخدع من كفة الحابل
تفانى الرجال على حبها وما يحصلون على طائل
يراها خائنة معشوقة

ومن لم يعشق الدنيا قليل ولكن لا سبيل الى الوصال

وقد نظر المتنبي فيما نظر الى الموت وما بعد الموت ، فكان نظره قصيراً فيما وراء الطبيعة وخياله محدوداً ؛ ليس له رأى ذاتى فيه وإنما يسمع ما قيل ويشك فيما قيل ؟ ولعله سمع فى قصيدته التى رثى بها عمة عضد الدولة سمعاً يذكرنا بما سمعا اليه المعرى فى الرثاء . فقد مزج نظرته بشىء من الفلسفة الوثنية التى تعيد الأرواح إلى جوها والأجساد إلى تربها وترى كل شىء معلقاً بالزمان

نحن بنو الموتى ، فما بالنا نعاف ما لابد من شربه
تبخل أيدينا بأرواحنا على زمان هن من كسبه
فهذه الأرواح من جوه وهذه الأجساد من تربه
يموت راعى الضأن فى جهله ميتة جالينوس فى طبه
وربما زاد على عمره وزاد فى الأمن على سربه
وغاية المفرط فى سلمه كغاية المفرط فى حربه
لو فكر العاشق فى منتهى حسن الذى يسبيه لم يسبه

فكم فى هذه الصورة الأخيرة من روعة وتشاؤم ! وقد تكون روعتها فى انطلاقها وإطلاقها الخيال للسامع ، فيصور ويمثل منتهى هذا الحسن الذى يسبيه ، وقد وددت لو أنقل صورة لمثل هذا المنتهى للشاعر الفرنسى « بودلير » فى قصيدته « جيفة » وهل يريد المتنبي من هذا المنتهى إلا هذه الجيفة ؟ وليته رسم لنا خطوطها وأتم صورتها ، ولكن الموت قد يعكر على المتنبي هناءه ، ولكنه لا يمنعه منه وقد يستغل اسمه وهوله — أمام محبوبته ، وجيفته — فيطلب إليها أن تزوده من حسن وجهها قبل أن يحول ، وأن تصله فى هذه الدنيا لأن المقام فيها قليل ، أما رعشة الموت فهو يحسها ويلمسها ويراها ويدرك كما أدرك المعرى بنظره الشامل أننا :

يدفن بعضنا بعضاً وتمشى أواخرنا على هام الأوالى

وهل فى هذه النظرات العميقة إلا تشاؤم عميق ؟ ولكنه لم يُسلم صاحبه إلى الاستسلام ؛ تشاؤم يرى كل ما يشق منظره فيحسب يقظات العين حلماً ؛ ويعفو عن الزمن لأنه لا يعقل أن يبلغه ما ليس يبلغه الزمن من نفسه . وهكذا خلق هذا التشاؤم فيه قوة يعود تعليلها إلى أمور كثيرة ، منها إلى مزاجه ومنها إلى بيئته ؛ وحقاً إذا كان مزاجه العصبي قد أضربه فى موطن